أن الشاعر الراحل حرص على أن يربط هذه القضايا الوطنية الكبرى بمضامين اجتماعية تشير، من جهة، الى أسباب الواقع، وتشير، من الجهة الاخرى، الى الرؤيا المستقبلية التي يتطلع الى تحقيقها الشاعر، والتي لا تكتفي بالتحرر الوطني العام ولا ترضى الّا بالتحرر الشامل، وبالذات التحرر الاجتماعي. وإذا حاولنا، مثلاً، الالتفات الى قصائد الشاعر الاولى في مرحلته التقليدية، وهي القصائد التي عبّر فيها عن آلام وعذابات الشعب الفلسطيني في مخيماته الاولى، سنجد أن الشاعر يقدم صورة تجمع في تفاصيلها مناظر البؤس والتشرّد الى جانب الاشارة الصريحة إلى استبداد الحكام وانشغالهم عن قضايا شعوبهم وإلى غياب الديمقراطية وتسيّد الاستبداد. يقول معين في قصيدته «السيول»[٤]:

لم يترك السيلُ غير الحبلِ والوتد ... من ذلك الشعب أو من ذلك البلد
وغيرَ بعض العرايا الساحبين على ... تلك الوحول بقاياهم من الولدِ
تلك البقية من شعبي ومن بلدي ... ما بين باكٍ ومجنون ومرتعدِ

الى ان يقول مخاطباً الحاكم:

يا مَنْ نصبت لهم سود الخيام على ... صفر الرمالِ لقد غاصت إلى الأبدِ
ألست جلادهم فاربط غريقهم ... واسحبه خلفك بالأمراس والزردِ
واترك لأطفاله آثار جثته ... دماً توهج فوق الرملِ والزبدِ
دمٌ سترعش قلب الأرض صرخته ... يا نار قد صحت الأموات فاتقدي

وابتداء من قصائده الاولى أيضاً، كان صوت الشاعر صوتاً لحركة الشارع التي كانت في تلك الايام السوداء من نكبة فلسطين تصارع في شتّى الاتجاهات: ضد ظروف الحياة الصعبة، وضد طغيان الحكام والجلّادين والعسس الذين أخذوا في مطاردة أبناء الشعب الفلسطيني وقواه المناضلة. وهنا كتب الشاعر قصدته «جنازة الجلّاد»، والتي وصف فيها أحد أدوات السلطة، المتجبر الطاغية الذي أذاق أبناء المخيمات الفلسطينية أشكالاً كثيرة من التعذيب، ووصف بؤس جنازته، واندحاره إلى القبر وسط لعنات الناس وشتائمهم:

إغسلوه بما جرى من دمائه ... فتراب العطاشِ أولى بمائه
وارجموا نعشه كما ترجم البومة ... بالباقيات مَن أشلائه
وامنعوا الشمس ان تضيء على ... الخائن حتى في مهرجان فنائه
وإذا سارت الجنازة والنجم ... شيخٌ عن ركبها بضيائه
فاطردوا حافر القبور عن الارض ... التي لطخت بوحل دمائه
واحرقوا الجيفة الخبيثة وامشوا ... وأطلّوا بها على أبنائه
ولتكن كومة الرماد إلى الذئب ... فراشاً وللغراب الثائه[٥]

حين نقرأ هذه القصيدة نتذكر قصيدة بدر شاكر السياب الشهيرة «المخبر»، وإن كان معين قد اختص هنا بوصف مشاعر الشعب تجاه موت الجلّاد. وهو إذ فعل ذلك، إنما أراد، ونجح، في اقصاء تقليد شعبي قديم في إحترام الموتى، أو على الاقل في غض الطرف عن عيوبهم وآثامهم بعد وفاتهم. لقد أراد الشاعر ان يجرد موت الجلاد عن الهالة التراجيدية التي تحيط عادة بالموت، وان يضع هذا الموت في سياق موقعه الصحيح. وبكلام آخر، كان معين ينوب عن الشعب الذي أطلق، في جنازة الجلّاد، زفرة ارتياح لم يكن من الممكن الاستمرار في حبسها، وكأنه قصد أن يفرق بين موت وموت، بين غياب وغياب، أي بين معنى وطقس ومعنى وطقس آخرين. ودوماً تستمر هذه الجدلية الناجحة